

المشيخة الأندلسية في بجاية ودورها في تنشيط المعرفة التاريخية خلال القرن 7 هـ / 13 م.

أ. آسيا ساحلي
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

BIBLID [1133-8571] 21 (2014) 97-116

Resumen: “Maestros andalusíes en Bujía. Su papel en la activación del conocimiento histórico durante el siglo XIII”. Durante el siglo XIII, la ciudad de Bujía atrajo un considerable número de andalusíes ligados directamente al conocimiento de la historia, que se establecieron en la ciudad de forma provisional o permanente. Los que permanecieron en la ciudad centraron su actividad en la enseñanza de una serie de obras históricas y crónicas a sus estudiantes, que procedían de la propia ciudad de Bujía y de fuera de ella. Al examinar los datos históricos dispersos en los libros, programas e índices de estos maestros, además de los libros de biografías, descubrimos la importancia de la actividad historiográfica de los andalusíes en Bujía, y arrojamos luz sobre los alumnos más destacados y los títulos de las obras que se enseñaban. Esto influirá en el desarrollo de la conciencia historiográfica de Bujía en el siglo XIII, ligada a la escuela de historia andalusí representada por los maestros más destacados, como Ibn Sarrāġ al-Īsbīlī, Ibn al-Abbār al-Balansī, y Abū ‘Abdallāh Muḥammad ibn Ṣāliḥ al-Kinānī al-Šāṭibī

Palabras clave: Conocimiento histórico; Bujía; maestros andalusíes; escuela historiográfica; Marruecos central.

Abstract: “Andalusi Masters in Bejaia. Their role in activating historical knowledge during the 13th century”. Thought the 7th century of Al-hegira / the 13th Century of Birth, the city of Bejaia had attracted a considerable number of Andalusian elements linked directly to historical knowledge, who settled in the city either in a temporary or in permanent manner. The latter had stressed their activities on teaching a set of works on History and Chronicles for a group of students’ campus (episodes). If we look on the historical data spread in the folders of books programs and lecturers’ indexes, alongside with the books of biographies studied therein, we shall discover the reality of the

historical activity that the Andalusians' Senate in Bejaia had practiced. A spotlight had been thrown on the brilliant pupils, whom had learned historical disciplines (modules), also the titles of the literature news that were taught in their campuses. This will affect the general path in the progression of the historical consciousness in Bejaia of the 7th /13th Century, where we observe its relation with the Andalusian historical school seen by its famous lecturers in the city such as Ibn-Sarrāj Al-Ishbīlī, Ibn Al-Abbār Al-Balansī and Abū 'Abdallāh Muḥammad b. Šāliḥ Al-Kinānī Al-Shāḫībī.

Key words: The Historical knowledge; Bejaia; The Andalusian Chiefdom; The Historical School; Central Maghreb.

ملخص: استقطبت مدينة بجاية خلال القرن 7 هـ / 13 م أعدادا معتبرة من العناصر الأندلسية ذات العلاقة المباشرة بالمعرفة التاريخية، والتي استقرت بالمدينة إما بصفة مؤقتة أو دائمة، هذه الأخيرة ارتكز نشاطها على تدريس مجموعة من المؤلفات الإخبارية على جملة من طلبة الحلقة، تباينت أصولهم بين عناصر بجائية أصيلة وأخرى وافدة، وبالعودة إلى المعطيات التاريخية المنثارة في ثنايا كتب اليرامج وفهارس الشيوخ يضاف إليها كتب التراجم والطبقات، تتكشف لنا حقيقة النشاط التاريخي الذي **قاده** المشيخة الأندلسية في بجاية، بتسليط الضوء على أبرز التلامذة ممن تلقوا مواد تاريخية وكذا عناوين المؤلفات الإخبارية المدروسة في حلقته. سوف يؤثر ذلك على المسار العام في تنامي الوعي التاريخي في بجاية القرن 7 هـ / 13 م، أين نربط ارتباطه بالمدرسة التاريخية الأندلسية ممثلة في أبرز شيوخها بالمدينة على غرار الراوية ابن السراج الاشبيلي، التاريخي ابن الأبار البلنسي، وأبي عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي

الكلمات المفتاح: المعرفة التاريخية، بجاية، المشيخة الأندلسية، المدرسة التاريخية، المغرب الأوسط.

من المؤكد أن الروابط والصلات الثقافية بين المغرب والأندلس في العصر الإسلامي تعود إلى أزمنة تاريخية مبكرة، تباينت أسبابها بين رغبة شخصية، غالبا ما تكون ممثلة أساسا في الرحلة إلى لقاء الشيوخ، أو ظروف اضطرارية، قد تكون متعلقة بالشخص في حد ذاته أو ظرف عام تمر به المنطقة. ودون الدخول في تفاصيل أسباب الرحلة بين العدوتين ومتعلقاتها، فإنني في هذه الورقة سوف أتطرق لأهمية العنصر البشري في التفاعل الحضاري بين العدوتين، وذلك بتسليط الضوء على الحالية الأندلسية خلال القرن 7 هـ / 13 م في بجاية، ودورها في تفعيل الحقول التاريخية، من خلال تصددهم للإقراء وتدريسهم مجموعة من المؤلفات الإخبارية على جملة من التلامذة، سواء من المغرب الأوسط أو الواردين إليه. على أن سندي الرئيسي في هذه المحاولة، هما كتابا أصيل المنطقة أبي العباس الغبريني (ت. 704 هـ / 1304 م)، الذي يرد علينا بـ "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"⁽¹⁾ و"المشيخة"

(1) تحقيق رايح بونار، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970.

الملحقة بآخر كتابه، إضافة إلى برنامجي التحجبي (ت 730 هـ / 1329 م)⁽²⁾، وأبي جعفر اللبلي (ت 691 هـ / 1291 م)، ورحلة العبدري (ت بعد: 688 هـ / 1289 م)⁽³⁾. ومن الملائم أن نشير هنا إلى أهمية هذه الأعمال الإخبارية، باعتبار أصحابها ممن أقاموا أو مروا ببجاية في القرن الهجري السابع.

كما لا يخفى على أحد من المهتمين بالتاريخ للحركة العلمية في الغرب الإسلامي الوسيط، الدور البارز الذي تلعبه كتب البرامج⁽⁴⁾، في كشف النقاب عن عناوين المؤلفات التي كانت محورا للدراسة في حلقات الشيوخ، ومن ثمة إمكانية تحديد الخلفية الفكرية والمرجعية المعرفية لمنطقة بجاية على الخصوص باعتبارها موضوع الدراسة، ومن جهة أخرى تسليط الضوء على أبرز الشيوخ الذين تصدروا للإقراء وان أمكن التعرف حتى على الطريقة المتبعة في عملية التلقين وأماكن الإقراء، ناهيك عن معرفة أسماء التلامذة الذين كانوا يحضرون مجالس الشيوخ.

من المؤكد أن ما نتطلع إلى كشف النقاب عنه، من إبراز ملامح تطور الفكر التاريخي في المغرب الأوسط ممثلا في منطقة بجاية خلال القرن 7 هـ / 13 م، أمر مهم وملفت للانتباه لكن في ذات الوقت ليس بالهين اليسير، يعود ذلك أساسا إلى قلة المؤلفات المحلية، خصوصا تلك التي تعالج مثل هذه المواضيع ويزداد الأمر تعقيدا إذا تعلق الأمر بالمغرب الأوسط والقسم الغربي من إفريقية.

(2) أود أن نلفت الانتباه فقط إلى وجود بعض الدراسات المهمة التي أُنجزت حول برنامج التحجبي، إضافة إلى الدراسة التي أُنجزها محقق البرنامج عبد الحفيظ منصور، نذكر منها: دراسة الباحثة Ana Ramos Calvo رسالة دكتوراه، جامعة مدريد، سنة 1976. ونشرت في وقت سابق مقالا حول هذا البرنامج أيضا عرضت فيه إحصاءات حول كمية وطبيعة المؤلفات التي درسها التحجبي على عدد كبير من شيوخه تم نشره في: Ana Ramos Calvo, « Le Barnamag d'al-Tugibi », *Arabica* 24-3 (1974), pp. 291-298.

في ذات الاتجاه أيضا أُنجز علاوة عمارة مقالا حول أهمية كتب البرامج والفهارس في التاريخ الثقافي لبلاد المغرب، سلط فيه الضوء بشكل خاص على مكانة المؤلفات التاريخية مقارنة مع المؤلفات الأخرى المدروسة مستندا، في ذلك على المعطيات التاريخية التي قدمها كل من ابن الخير الأشبيلي (ت 575 هـ / 1179 م) والتحجبي في برنامجيهما. Allaoua Amara, « La transmission du savoir historique en al-Andalus et au Maghreb à la fin du Moyen Âge », *The Maghreb Review* 28-2/3, (2003), pp. 215-245.

(3) ينظر آسيا ساحلي "الرحالة العبدري، إشكالية غياب النخب العلمية بالمغرب الأوسط مع نهاية الفترة الوسيطة". مجلة *المعالم التاريخية*، عدد 13، (2012)، ص 88-97.

(4) من الدراسات المهمة التي سلطت الضوء على كتب البرامج في بلاد المغرب دراسة، عبد الله المرابط الترغي الموسومة ب: *فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها تطورها قيمتها العلمية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.*

موقعة العقاب عامل حاسم في تكتيف تدفق العناصر الأندلسية إلى المجال البجائي

إن المتبع للحالة السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها العدو الأندلسية مع نهاية القرن 6 هـ / 12 م ومطلع القرن 7 هـ / 13 م. لا يتردد في الجرم بحالة الضعف والانكسار التي شابت أغلب المدن الأندلسية في تلك المرحلة الحرجة. في مقابل ذلك نرب استعادة الممالك الاسبانية لعافيتها وتوحيد جهودها في محاولة منها فرض هيمنتها على شبه الجزيرة الأيبيرية، وإحياء إسبانيا النصرانية وذلك بتعويض ما خسرت أمام القوى الإسلامية منذ نهاية القرن 1 هـ / 7 م.

بعد فقدان المسلمين عددا من المدن الأندلسية على فترات مختلفة، كانت هزيمة الموحدون في معركة "العقاب" سنة 609 هـ / 1212 م، حدا مفصليا، تبعته هزائم متلاحقة ازدادت معها القبضة المسيحية على شبه الجزيرة الأيبيرية. وإلى غاية سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين سنة 897 هـ / 1492 م، كان منطقيا أن نلاحظ تدفق أعداد كبيرة من الجالية الأندلسية، التي استقرت بشكل مكثف بالحواضر الساحلية بما فيها بجاية العاصمة الثانية للسلطنة الحفصية وأحيانا مدينة منافسة لها، وليس أدل على ذلك من شهادة ابن خلدون، سليل أسرة عربية استقرت بالأندلس لتجد نفسها نتيجة لظروف معينة إحدى أبرز الأسر النازحة إلى افريقية، حيث لخص لنا ذلك في كتابه "العبر"⁽⁵⁾ بالقول: "لما تكالب الطاغية على العودة والتمهم ثغورها واكتسح بسائطها وأسف على قواعدها وأمصارها أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها".

وكانت هذه الجموع من الكثرة بحيث استطاعت أن تفرض نفوذها في البلاط، والإدارة وحتى في الحياة العامة، وأن تتمكن من إحداث تغيرات حاسمة في مجالات مختلفة، ما يهمننا في هذه العناصر هو تأثيرها الواضح على الحركة التعليمية في بجاية بشكل خاص، وعلى طبيعة المواد المدرسة في حلقات الدرس، وإن كانت معلوماتنا بهذا الصدد غير مفصلة، بحيث تمكننا من التعرف بدقة عن أعدادهم، وضبط نقط استقرارهم واستيعاب مدى تأثيرهم في مجالس الإقراء بمنطقة بجاية. فإن عددا لا يستهان به منهم كانوا من فئة الشيوخ الذين تصدروا للإقراء في موطنهم الأصلي وقد ذاع صيتهم من قبل قدومهم إلى العودة المغربية⁽⁶⁾.

(5) مراجعة سهيل زكار، دط، دار الفكر، بيروت، 2000، 438 / 6.

(6) بين عدد من الدارسين دور الجماعة الأندلسية في بجاية وسيطرها على الحياة العلمية بصفة عامة. يراجع حول هذا الموضوع: صالح بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006، ص 358-374، رفيق خليف، "تطور استقرار الجالية الأندلسية في المغرب الأوسط"، مغرب أوسطيات: دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، إشراف علاوة عمارة، قسنطينة، مكتبة اقرأ، 2013، ص 75-112. Dominique Urvoy, « La structuration du monde des ulémas à Bougie au VII^e/XIII^e siècle », *Studia Islamica*, XLIII (1976), p. 87-107; Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin, 1067-1510*, Rome, École française de Rome, 2006, p. 519-524.

طبقة المؤرخين من الشيوخ الأندلسيين الواردين إلى بجاية يتولون مهمة الإقراء

إن قراءة متأنية لكتب التراجم والطبقات المحلية منها والأندلسية، التي اهتمت بشكل مباشر بالترجمة لشخصيات أندلسية عاشت خلال القرن 7 هـ / 13 م. تجعلنا نكتشف أن عددا معتبرا منهم كان على قوائم النازحين إلى منطقة بجاية ودون الخوض في أسباب النزوح، فإن القاسم المشترك لهذه الفئة هي مساهمتها الفعالة في تدريس مجموعة من المؤلفات في فروع مختلفة، سوف نركز حديثنا على طبقة المؤرخين دون سواها، ومدى إسهامها في تلقين عدد من المؤلفات التاريخية - مجال اهتمامنا - على طلبة الحلقة التي كانوا يعتقدونها بشكل خاص في المساجد التي أسندت إليهم، كمتولي صلاة الفريضة أو خطيب الجامع أو المنصيين معا. ما يشد الانتباه أكثر أن هذه الطبقة نزلت من قطر وصل فيه مستوى الوعي التاريخي لديها إلى مرحلة النضج، وتشكلت هناك مدرسة تاريخية أندلسية لها خصوصيتها⁽⁷⁾. تلك الخصوصية مستمدة أساسا من الزخم الكبير الذي طبع مستوى الإنتاج التاريخي لديها كما وكيفا، بل ظهرت بها أسر اشتهرت بالتدوين التاريخي على غرار أسرة الرازيين⁽⁸⁾.

يبدو واضحا أن تراجم قاضي مدينة بجاية الغريبي التي دوّنها في كتابه "عنوان الدراية"، سوف يكون معتمدا الأساسي في رصد أبرز الأسماء الأندلسية ذات العلاقة المباشرة بالمعرفة التاريخية، والتي كان لها دور في تفعيل النشاط التاريخي بالمنطقة. وعليه يمكننا إحصاء على الأقل عشر شخصيات أندلسية نازحة إلى المنطقة، عُرفت بنشاطها التاريخي⁽⁹⁾.

- (7) حول خصائص المدرسة التاريخية الأندلسية. أنجزت العديد من الدراسات منها:
- ك. بويكا، المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نايف أبو كرم، دار علاء الدين، دمشق، 1999.
- علاوة عمارة، "الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، عدد 32، (2004)، ص 333-369.
- عبد الواحد ذنون طه، مصادر في تاريخ المغرب والأندلس، دار المدار، بيروت، 2011.
- علي زباني، "المعرفة التاريخية في الأندلس خلال القرن 5 هـ / 11 م"، مذكرة ماجستير (غير منشورة)، إشراف علاوة عمارة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011.
- (8) ألف مؤرخ البلاط الأموي أبو بكر أحمد بن موسى الرازي (ت 344 هـ / 955 م) مجموعة من الكتب التاريخية منها: كتاب في "أخبار أهل الأندلس وتاريخ دول الملوك فيها"، كتاب آخر في "نسب مشاهير الأندلس" وكتاب "الاستيعاب في أنساب الأندلس" وله عنوان آخر في "أعيان الموالى في الأندلس"، أما ابنه عيسى بن أحمد (ت 379 هـ / 989 م) فقد ألف مثل والده مؤلفا تاريخيا للخليفة الأموي للحكم الثاني. هذا وتعتبر مؤلفاتهما مستندا أساسيا لأخبار الأندلس رجع إليها كل من ابن حيان وابن الأبار. إضافة إلى شخصية محمد بن موسى الرازي (ت 277 هـ / 890 م) صاحب كتاب "الرايات".
- (9) يمكن مراجعة هذه الشخصيات والمكانة التي حظيت بها في مدينة بجاية في مقال الموسوم بـ "انتقال المعرفة التاريخية بالمغرب الأوسط مع نهاية الفترة الوسيطة"، مغرب أوسطيات: دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، ص ص 215-217.

سوف نركز اهتمامنا فقط على ثلاثة شيوخ وهم: ابن السراج أبو الحسن علي (ت 657 هـ / 1258 م)، ابن الأبار القضاعي (ت 658 هـ / 1259 م)، أبو عبد الله محمد بن صالح الكنايني (ت بعد: 699 هـ / 1300 م). يعود ذلك أساسا إلى الإشارات الصريحة الواردة في بعض النصوص التاريخية، تؤكد على تدريسهم مؤلفات تاريخية في حلقتههم بمنطقة بجاية على طلبة الحلقة، سواء من المنتسبين إليها أو حتى الواردين عليها، وعليه يمكننا على الأقل تقييم النشاط التاريخي للمشيخة الأندلسية في بجاية من خلال تتبع دور هؤلاء الشيوخ ورصد تلامذتهم والمواد المدرسة في حلقتههم.

1/ الرواية ابن السراج الإشبيلي:

إن قراءة خاطفة للترجمة التي خصصها له الغبريني⁽¹⁰⁾ واعتباره صاحب "رواية عالية متسعة"، يدرك جيدا طبيعة الوسط التاريخي الذي ينتمي إليه هذا الأخير، فهو ابن أخت الرواية التاريخي ابن الخير الاشبيلي (ت 575 هـ / 1179 م)، من أبرز تلامذة المؤرخ ابن بشكوال (ت 578 هـ / 1182 م)، والمؤرخ أبي القاسم السهيلي (ت 581 هـ / 1185 م). تولى الإقراء في بجاية لمجموعة كبيرة من مشيخة الأندلس ذوي الاهتمامات التاريخية نذكر منهم، ابن الأتار، ابن سيّد الناس (ت 659 هـ / 1260 م)، ابن صالح الكنايني... الخ. رغم هذا الوسط التاريخي المتميز، لم يذكر لنا الغبريني طبيعة المؤلفات التي كان يدرسها هذا الأخير في بجاية، واكتفى بذكر تلامذته فقط.

وعلى الرغم من خيبة أماننا تجاه المعلومات الشحيحة والباهتة، التي قدمها الغبريني حول النشاط التاريخي لابن السراج، ما جعلنا غير جازمين بتدريسه لمؤلفات تاريخية في بجاية، لتأتي هنا شهادة بالغة الأهمية لأحد تلاميذ ابن السراج في بجاية، نعي به أبا جعفر اللبلي "الأستاذ اللغوي التاريخي"، أحد الشيوخ المنتسبين إلى طبقة المؤرخين الأندلسيين الوافدين على بجاية، هذا الأخير وإن خصص له الغبريني ترجمة مقتضبة في عنوانه⁽¹¹⁾، لم يذكره كتلميذ لابن السراج، مكتفيا بالإشارة إلى ممارسته مهنة الإقراء في المدة التي سكنها في بجاية.

ذكر برنامج هذا التلميذ اللبلي⁽¹²⁾ صراحة قراءته على شيخه ابن السراج أثناء إقامته في بجاية، جميع مؤلفات أبي القاسم السهيلي وسمى منها كتابه في السيرة الموسوم بـ "الروض الأنف الباسم"، إضافة إلى مؤلفات أخرى⁽¹³⁾.

(10) مصدر سابق، ص 181-182. ويتصل إسناد الغبريني بالشيخ ابن السراج بطريق عدد من شيوخه في بجاية، منهم الشيخ أبي عبد الله الكنايني، الشيخ أبي العباس أحمد بن خضر الصديقي، الشيخ أبي جعفر أحمد المكتب. ينظر: الغبريني، المشيخة، ص 310، 311، 315، 316، 319، 321، 322.

(11) مصدر سابق، ص 300.

(12) تحقيق محمد بوزيان بنعلي، طنجة، مطبعة اسبارطيل، 2011، ص 52.

(13) منها: كتاب "سبل الخيرات" لأبي الحسين يحيى بن نجاح ابن القلاص الأموي القرطبي (ت 422 هـ / 1030 م). ينظر:

أما برنامج التحجيج⁽¹⁴⁾، فيكشف لنا عن تلميذ ثان لابن السراج في بجاية، ممن درسوا عليه كتباً تاريخية، نعي به نزول بجاية وخطيب جامعها الأعظم أبا عبد الله بن صالح الكنايني. أين يظهر لنا اسم ابن السراج في سلاسل أسانيد بعض المؤلفات التاريخية التي درسها عليه تلميذه الكنايني، الجدول التالي يرصد لنا أربعة مؤلفات تاريخية درسها الكنايني على شيخه ابن السراج استناداً إلى سلاسل أسانيد التحجيج الواردة في برنامجه:

عنوان الكتاب	صاحب الكتاب	نوعه	طريقة التحمل	الصفحة
الدرر في اختصار المغازي	ابن عبد البرّ (ت 463 هـ / 1070 م)	السيرة	مناولة	134
الشفاء	القاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)	السيرة	قراءة	138
صلة	ابن بشكوال (ت 578 هـ / 1182 م)	التراجم	مناولة	263-262
القصد والأمم	ابن عبد البرّ	الأنساب	قراءة	265

وقبل أن نختم حديثنا حول دور ابن السراج في تلقين مجموعة من المؤلفات التاريخية على لطلبة الحلقة في بجاية، لفت انتباهي قيام هذا الأخير بتدريس كتاب شيخه ابن بشكوال "الصلة" على تلميذ آخر له ونعي به الشيخ محمد بن إبراهيم البليقي السلمي (ت 694 هـ / 1294 م)، لكن جهلنا بمكان الإقراء حال دون الاستفادة من هذه المعطيات الإخبارية المهمة، وما زاد الأمر غموضاً عدم إدراج الشيخ أبي القاسم البليقي، ضمن قائمة الشيوخ الواردين إلى بجاية القرن الهجري السابع في "عنوان الدراية" على الأقل، كل هذا جعلني أستبعد بجاية كمكان للقاء والدرس وأرجح أن تكون إحدى الحواضر الأندلسية، باعتبار أن كل من الشيخ والتلميذ ينحدران من أصول أندلسية. لكن بالتدقيق أكثر في السنة التي قام فيها ابن السراج بتدريس كتاب "الصلة" على تلميذه الشيخ البليقي، والمصرح به في برنامج التحجيج⁽¹⁵⁾ وهو سنة 656 هـ / 1257 م، أي قبل وفاة الشيخ ابن السراج بسنة واحدة فند تلك الاحتمالات، بل جعلنا نرشح بجاية كمكان للدرس دون غيرها، معرفتنا المسبقة أن الراوية ابن السراج ممن استقر في المدينة بصفة نهائية وتوفي بها، وفي الاتجاه المقابل مراجعتنا لنص الترجمة الذي خصصه صاحب "الإحاطة"⁽¹⁶⁾ للتلميذ الشيخ

المصدر نفسه، ص 69.

(14) تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

(15) المصدر نفسه، ص 262.

(16) ابن الخطيب، الإحاطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977، 4/ 248-251. ابن القاضي، درة المجال، تحقيق الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، 1971، 2/ 59-60.

البليقي، يؤكد فيها تتلمذه على شيخه ابن السراج، كما أسعفنا بإشارة مهمة مفادها قيام هذا الأخير برحلة إلى بلاد المغرب للقاء الشيخ⁽¹⁷⁾، إلا أن صاحب "الإحاطة"، وعلى الرغم من عدم ذكره للحواضر العلمية التي حل بها، فالعودة إلى تاريخ سماعه للكتاب على شيخه ابن السراج، يجعلنا نعتقد أن مدينة بجاية كانت إحدى محطات البليقي، أين التقى بشيخه ابن السراج بتاريخ 656 هـ / 1257 م ودرس عليه "صلة" شيخه.

والى غاية ظهور مصادر إخبارية أخرى، من شأنها أن تزيل الكثير من الغموض الذي يكتنف بعضا من جوانب النشاط التاريخي للشيخ ابن السراج، فإن محاولتي تقصي تلامذة هذا الأخير في بجاية أفضت إلى العثور على ثلاثة منهم (أبي جعفر اللبلي، أبي عبد الله بن صالح الكناني، أبي القاسم البليقي)، وهنا تتكشف لنا بشكل ملموس أهمية كتب البرامج في إعطاء صورة واضحة عن عناوين المؤلفات التاريخية التي كانت متداولة في حلقة الشيوخ، ناهيك عن ضبطها لزمان ومكان الإقراء في بعض الأحيان.

2/ ابن الأبار القضاعي، أبو عبد الله محمد (ت 658 هـ / 1259 م)

من دون تردد يمكن القول إن هذا "الشيخ الفقيه الكاتب البارع التاريخي"، يعتبر من أبرز الشخصيات التاريخية التي أدرجت على لائحة الوافدين على بجاية في كتاب الغريبي⁽¹⁸⁾، الذي أكد لنا قيام صاحب كتاب "التكملة" في المدة التي أقامها هناك بالتدريس والإقراء والتصنيف، هذه الشهادة المهمة تعززت بما أورده صاحب "الذيل والتكملة"⁽¹⁹⁾ أيضا، من عكوف هذا الأخير في المدة الطويلة تلك، بنشر العلم بل صنف بها كتابه "إعتاب الكتاب"، الذي لا يخلو مغزاه من محاولة ابن الأبار التودد والتقرب لولي نعمته السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى (626-647 هـ / 1228-1249 م) بالخاصة تونس، وفي سياق متصل نجده في جامع بجاية الأعظم، يقرأ فيه "سنن" الدارقطني (ت 385 هـ / 995 م) على شيخه الراوية ابن السراج (ت 657 هـ / 1258 م)⁽²⁰⁾.

(17) نوه هنا فقط، إلى تواجد ابنه أبي البركات البليقي (ت 773 هـ / 1371 م)، في بجاية ولقائه بناصر الدين المشدالي والدراسة عليه. حوله ينظر: النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص ص 174-177. المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، 487-471/5. أما الأب أبي إسحاق البليقي فمن شيوخ ابن رشيد السبتي (ت 721 هـ / 1321 م) الذي أكد دراسته عليه بتونس سنة 684 هـ / 1285 م، في رحلته الموسومة بملء العيبة، تحقيق محمد الحبيب بن حوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1982، 156-127/2.

(18) مصدر سابق، ص 259.

(19) تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1973، 269/6.

(20) ابن الأبار، معجم شيوخه، تحقيق محمود الدومي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010، ص 93-94.

لا نشك مطلقاً في أن ابن الأبار، كان من العناصر الأندلسية النشطة في بجاية القرن السابع هجري، لكن الإشكالية الجوهرية التي تطرح علينا هنا بإلحاح، هي غياب إشارات صريحة في المصادر الإخبارية، التي اهتمت بالترجمة له، تؤكد قيامه بتدريس مؤلفات تاريخية في المنطقة، حتى نستطيع تقييم نشاطه التاريخي. وهو ما يدفعنا إلى التفتيش عن الأسباب الحقيقية التي تقف وراء ذلك. هل يعود فقط إلى كون طبيعة كتب التراجم والطبقات، التي غالباً ما تركز اهتمامها على ذكر شيوخ وتلامذة صاحب الترجمة إجمالاً، دون الخوض في تفاصيل المواد المدرسة وأماكن الدرس، التي هي في الأصل من اختصاص كتب البرامج وفهارس الشيوخ، أم أن الأمر يتعدى ذلك؟

لن نذهب بعيداً في تحليل هذه المسألة ومناقشتها عن كتب البرامج، لنستعين مرة أخرى ببرنامج التجيبي، أين نقرأ اسم ابن الأبار يبرز في سلاسل أسانيد تلميذه الشيخ أبي عبد الله الكناني وقد درس عليه كتابين في التاريخ. الكتاب الأول هو "درر السمط في خبر السبط"⁽²¹⁾ حيث قام ابن الأبار بتدريس كتابه "الدرر" للشيخ الكناني في حلقاته وبالضبط بتاريخ محرم سنة 654 هـ / 1256 م⁽²²⁾، أي أربع سنوات فقط قبل وفاته، أما الكتاب الثاني فهو كتاب "الضعفاء والمتروكين" للبخاري (ت 256 هـ / 869 م)⁽²³⁾.

نلفت الانتباه هنا، إلى أن التجيبي وإن لم يذكر لنا المكان الذي درس فيه الشيخ أبو عبد الله الكناني على شيوخه ابن الأبار، إلا أنه يمكننا الجزم بكونه بجاية وليس مكاناً آخر لسببين: أولهما أن ابن الأبار كان في هذه الفترة بالذات في بجاية في أعقاب الجفوة التي حصلت له مع صاحب البلاط الحفصي بتونس. ثانيهما أن التلميذ الشيخ الكناني وعلى حسب ما ذكره الغربي استقر في المدينة بصفة نهائية منذ مدة طويلة ولم ينتقل منها إلى مكان آخر، على الأقل نجده بالتأكيد في بجاية في أول سنة 654 هـ / 1256 م، يلتقي فيها بصديقه ابن محرز البنسي (ت 655 هـ / 1257 م)⁽²⁴⁾. وهو التاريخ ذاته الذي التقى فيه بشيخه ابن الأبار ودرس عليه كتابه "درر".

وإن تمكنا من الكشف عن أبرز تلاميذ التاريخي ابن الأبار في بجاية، ممن أخذ عنه بعضاً من المؤلفات التاريخية⁽²⁵⁾. ومن ثمة تسليط الضوء على جانب من جوانب النشاط التاريخي لهذا المؤرخ. لكن بشكل ضئيل

(21) تحقيق عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1987. وهو كتاب في مرثي آل البيت يحكي فيه سيرتهم ومناقهم، وفي ذات الإنجاء ألف كتابه "اللحن في مرثي الحسين"، اطلع عليه الغربي، مصدر سابق، ص 261. وأثنى عليه بالقول "ولو لم يكن له من التأليف إلا الكتاب المسمى بكتاب اللحن في مرثي الحسين لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته".

(22) التجيبي، مصدر سابق، ص 259.

(23) المصدر نفسه، ص 260-261.

(24) الغربي، مصدر سابق، ص 104-105.

(25) نفهم من حديث الغربي في "عنوانه"، ص 259. عن اتصال سنده بابن الأبار عن طريق الشيخين أبي عبد الله الكناني والشيخ أبي العباس بن خضر. إلى وجود تلميذ آخر لابن الأبار في بجاية وهو الشيخ أبو العباس بن خضر، لكننا نجعل

وباغت لا يرقى إلى مستوى الشخصية المتحدثة عنها في بجاية، خصوصا إذا علمنا أن كتابه التاريخي "التكملة"، الذي بقي يحظى بعنايته ويقوم بالتصحیحات والتعديلات عليه إلى غاية سنة 655 هـ / 1257 م، أي ثلاث سنوات فقط قبل وفاته⁽²⁶⁾. كانت مبيضته تلك مجوزة تلميذه الملازم له بتونس ابن الجلاب (ت 664 هـ / 1265 م)⁽²⁷⁾، أين قام هذا التلميذ بإعادة نسخ كتاب شيخه بناء على تلك المبيضة، لتعرف بعدها نسخة ابن الجلاب الأم النفيسة، طريقها إلى الموطن الأصلي لمؤلفها الأندلس وبالتحديد بئر منورقة، حيث قام كل من محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني وابن الحكم سعيد بن حكم بمعارضة وتصحيح نسخة "التكملة" بأصل ابن الجلاب، كان ذلك يوم الجمعة 10 جمادى الآخرة سنة 661 هـ / 1262 م⁽²⁸⁾. بمعنى آخر أن كتاب ابن الأبار عبر إلى برّ العودة الأندلسية بعد ثلاث سنوات فقط من اغتيال صاحبها، لينجو هذا الكتاب من النكبة التي لحقت بصاحبه ومجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه⁽²⁹⁾، ولا يستبعد أن تكون تلك النسخة هي النسخة الأم التي انبثقت منها باقي النسخ⁽³⁰⁾.

كما أن حاضرة العرفين سبتة، لم تكن استثناء في ذلك حيث عرفت "التكملة" طريقها إلى العودة المغربية مرة أخرى وإن كانت متأخرة نسبيا، لكن قبل نهاية القرن 7 هـ / 13 م، أين كانت تدرس في حلقة أحد تلاميذ ابن الأبار ومن أجازته في رواية تكملته⁽³¹⁾، نعني به الشيخ البليقي (ت 694 هـ / 1294 م) ما

-
- تماما طبيعة المواد الدراسية التي تعاطاها هذا التلميذ على شيخه ابن الأبار، ما يجعلنا نكتفي فقط بإشارة الغربي تلك.
- (26) حول تاريخ تأليف كتاب ابن الأبار والتصحيحات التي قام بها. ينظر: الدراسة التي أنجزها كل من ألفريد بل ومحمد بن أبي شنب التي قداما بها نص تحقيقهما للقسم المفقود من التكملة، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1920. ص 1-8.
- (27) ينظر ترجمته: ابن عبد الملك المراكشي، مصدر سابق، 52/6-54.
- (28) نعرف ذلك من خلال توقيع أحد المصححين للنسخة وهو التلمساني الذي كتب بخطه على الورقة الأولى من مخطوطة الخزانة الحسينية المدرجة تحت رقم (1411). وعن هذه النسخة تتفرع نسخة المكتبة الوطنية بالرباط المدرجة تحت رقم (ك 358). لمعرفة المزيد من التفصيل عن نفاسة هذه النسخة. ينظر: محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996، ص 502-503.
- (29) من أجل معرفة المزيد من التفصيل حول أسباب مقتل ابن الأبار بأمر من السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر (647-675 هـ / 1249-1277 م). ينظر: ابن خلدون، مصدر سابق، 418/6-419. المقرئ التلمساني، أزهار الرياض، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2010، 211/3-213.
- (30) إضافة إلى النسخة التي أشرنا إليها سابقا التي تحت رقم (ك 358)، تحتفظ المكتبة الوطنية بالرباط كذلك، بنسختين عتيقتين لتكملة ابن الأبار، النسخة الأولى تحت رقم (د 4135) تفيد الطرز الموجودة بها والعبارات المثبتة على الورقة الأولى بنفاستها. أما النسخة الثانية فعليها تملك يحي بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي العربي وهي تحت رقم (ك 214). كما تحتفظ مكتبة دير الأسكوريال بنسخة عتيقة غير مؤرخة تحت رقم (1678=1673 كسيري)، إضافة إلى نسخة أخرى تحت رقم (1675=1670 كسيري).
- (31) التجيبي، مصدر سابق، 262. وفي ذات السياق قدم لنا ابن الخطيب في كتابه الإحاطة، 250/3-251. قائمة طويلة لشيوخ البليقي في الترجمة التي خصه بها وذكر منهم شيخه ابن الأبار وابن السراج.

يستدعي الاهتمام هنا، أن هذا الأخير من تلاميذ ابن السراج في مجاية وقد أشرنا إلى ذلك سابقا، كما يعتبر من أبرز شيوخ التجيبي في سبته، وقد درس عليه "التكملة"، يضاف إليها مؤلفات تاريخية أخرى⁽³²⁾. إذا تأكد لدينا انتشار كتاب "التكملة"، في بعض حواضر الغرب الإسلامي الوسيط في النصف الثاني من القرن 7 هـ / 13 م، تولى ذلك تلامذة ابن الأبار منهم ابن الجلاب وأبي القاسم البليقي، إما بطريق التدريس أو النسخ، فمن المستبعد أن تكون مجاية استثناء في هذا، وإن كانت تعوزنا المادة الخبرية الكافية المتعلقة بهذا الشأن، فإن إشارة من الغريبي التي أوردها في أعقاب ترجمته للراوية ابن برطلة الأزدية (ت 661 هـ / 1262 م)⁽³³⁾، أين أحال فيها إلى مراجعة نص "التكملة"، فيما يتعلق بالأصول التي ينحدر منها هذا الأخير، يفهم منها بما لا يدعو للشك المعرفة الدقيقة بمحتوى "التكملة" من طرف الغريبي، وبالفعل العودة إلى نص "التكملة" المتداول بين أيدينا الآن، يحوي ترجمة لكل من والد ابن برطلة وجدته⁽³⁴⁾، رغم تأكيدنا ذلك فإننا في ذات الوقت لا نعرف حقيقة مطالعته لهذا الكتاب، هل كان من نسخة شخصية كان يمتلكها ومن ثمة عاد إليها أثناء تأليفه لعنوان الدراية؟ أم أنه اطلع عليه في أحد الأمكنة التي كان يتردد عليها، قد يكون مجاية أو حتى تونس الحاضرة الأولى التي انبثقت منها نسخة "التكملة".

3/ أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكنايني الشاطبي (ت بعد: 699 هـ / 1300 م)

يعتبر أبو عبد الله الكنايني من الشيوخ البارزين الذين تولوا مهنة التدريس والإقراء في مجاية، تكفيه في ذلك شهادة تلميذه الغريبي⁽³⁵⁾ في الترجمة التي خصّه بها قائلا: "روى ودرس واستجاز وأجاز وروى وقرأ واستمع واستفبع به خلق كثير"، كما أنه تولى الفريضة والحظية بجامعها الأعظم ما ينيف على الثلاثين عاما. لا نعرف عن أبي عبد الله الكنايني انتسابه إلى طبقة المؤرخين الأندلسيين، بل شهرته أوسع في تدريس اللغة العربية وفروعها إضافة إلى علوم الحديث والقراءات، لكن ذلك لم يكن ليمنعه من تدريس مجموعة من المؤلفات التاريخية في حلقته.

وبالنظر إلى نشاطه التاريخي البارز في المنطقة، يمكن اعتباره الحلقة الأساسية الأوسع، التي ترتكز عليها عملية تلقين المعرفة التاريخية لمجموعة من طلبة الحلقة في مجاية خلال القرن 7 هـ / 13 م، وهنا نذكر

(32) المؤلفات التاريخية التي درسها التجيبي في ستة على شيخه أبي القاسم البليقي هي: تاريخ الفقهاء ورواة تاريخ الفقهاء والرواة لابن الفرضي، صلة ابن بشكوال، كتاب الذيل لكتاب الصلة لابن فرتون السلمي. حولها ينظر: التجيبي، مصدر سابق، ص 262، 263.

(33) المصدر نفسه، ص 271.

(34) ينظر ترجمتهما: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المراس، بيروت، دار الفكر، 1995، 266/2-42-41/3، 268.

(35) مصدر سابق، ص 104.

بأهمية برنامج شيوخه الضائع، الذي لا نعرف عنه سوى قيام الشيخ الكناني بتدريسه على تلامذته في الحلقة⁽³⁶⁾. يضاف إليه أيضا برنامج ابن حماد الصنهاجي (ت 628 هـ / 1230 م) الضائع. بداية مع تلميذه سليل المنطقة وقاضي المدينة الغبريني، من الملازمين لحلقة شيخه ومن أكثر القراءة عليه والرواية عنه⁽³⁷⁾، ودرس عليه مؤلفات في الفقه والأصليين والحديث والتصوف والتفسير واللغة العربية وفروعها. يقدم لنا الجدول التالي لائحة تتكون من سبعة مؤلفات درسها على شيخه استنادا إلى مشيخته.

الكتاب المدروس	نوعه	الصفحة
موطأ مالك بن أنس (ت 179 هـ / 795 م)	الحديث	311
الكشاف لأبي القاسم الزمخشري (ت 538 هـ / 1143 م)	التفسير	311
الجامع البخاري لأبي عبد الله محمد (ت 256 هـ / 869 م)	الحديث	312
المسند للإمام مسلم بن الحجاج (ت 261 هـ / 874 م)	الحديث	312
جامع الترمذي أبي عيسى محمد (ت 279 هـ / 892 م)	الحديث	312
الرسالة لأبي القاسم القشيري (ت 465 هـ / 1072 م)	التصوف	321
الإرشاد لأبي المعالي الجويني (ت 478 هـ / 1085 م)	علم الكلام	321

يتضح من الجدول أعلاه، دراسة الغبريني مجموعة من المؤلفات في علوم مختلفة على شيخه وبشكل خاص أمهات كتب الحديث وغيرها، إلا أنه لم يشر مطلقا إلى دراسته مؤلفات تاريخية، ما يجعلنا ننبه إلى طريقة تصنيفه للعلوم⁽³⁸⁾ بين علوم الدراية والرواية، هذا التقسيم لا يدرج علم التاريخ ضمنها، وعلى هذا الأساس صنف كتابه⁽³⁹⁾، ربما يعكس هذا جزءا من سبب عدم تسميته لمؤلفات تاريخية درسها على شيخه. أما التلميذ الثاني، فهو أحد الطلبة الوافدين على مدينة بجاية، صاحب الرحلة، البلنسي الأصل محمد بن محمد العبدري الحيجي، التحق بحلقة الشيخ مرتين في أثناء وجهته إلى البقاع المقدسة بغرض أداء مناسك

(36) قام الشيخ أبو عبد الله الكناني بتدريس برنامجه لبعض طلبته، منهم العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جادو، مطبعة البعث، قسنطينة، 1964، ص 130. التجي أشار إلى ذلك في برنامجه، ص 249. كما تدل العبارات الواردة في عنوان الدراية، ص 107. اطلاع الغبريني على برنامج شيخه.

(37) المصدر نفسه، ص 106.

(38) لمزيد من التفصيل حول تصنيف العلوم في الفكر الإسلامي. ينظر: لعموري عليش، تصنيف العلوم في الفكر الإسلامي، الفارابي، الغزالي، ابن خلدون، الجزائر، دار هومة، 2009.

(39) لمزيد من التفصيل حول مفهوم علوم الرواية والدراية عند الغبريني، ينظر: عنوان الدراية، ص 307.

الحج والعودة منها، آتت قرأ عليه مجموعة من المؤلفات في فنون مختلفة⁽⁴⁰⁾، ما يهمننا دراسته مجموعة من المؤلفات ذات الصلة بالمعرفة التاريخية، التي أتت على ذكرها في نص الرحلة، وعليه أُنجزت الجدول التالي:

الكتاب المدروس	نوعه	صيغة التحمل	الوجهة	الصفحة
الشمائل للترمذي (ت 279 هـ / 892 م)	السيرة	قراءة ومناولة	الذهاب	30
درر السمط لابن الأبار (ت 658 هـ / 1259 م)	منقب آل البيت	قراءة	العودة	130
مختصر حلية الأولياء لأبي نعيم لابن قبوش أبي الحسن عبيد الله النفري	تراجم الصوفية	مناولة	العودة	130

على أن أبرز الطلبة الوافدين إلى بجاية، الذين التحقوا بحلقة الشيخ الكناني مع نهاية القرن السابع الهجري هو التجيبي، التي نزل بها سنة 694 هـ / 1294 م⁽⁴¹⁾. التقى فيها الشيخ ناصر الدين المشدالي (ت 731 هـ / 1330 م)، درس عليه مجموعة من المؤلفات الفقهية⁽⁴²⁾. لكن تركيزنا سوف يكون على حلقة شيخه ابن صالح الكناني، الذي درس عليه مجموعة من المؤلفات التاريخية، أتت على ذكرها في برنامج شيخه، ومن أجل تسليط الضوء عليها بشكل مباشر، وضعنا الجدول التالي:

- (40) من أجل معرفة المؤلفات التي درسها العبادري على شيخه أبي عبد الله الكناني في بجاية في طريق الذهاب والعودة. ينظر: العبادري، مصدر سابق، ص ص 24-28، 130-131.
- (41) استنادا إلى ما أورده في برنامجه، ص ص 160-161. ذكر التجيبي دراسته لكتاب "الأربعين حديثا عن الأربعين شيخا من رجال الأندلس" جمع ابن الأبار، على شيخه أبي عبد الله الكناني ببجاية في ثلاثة مجالس آخرها 29 ذي الحجة 694 هـ / 1294 م. وفي السنة الموالية أي سنة 695 هـ / 1295 م. كان أيضا في بجاية أين درس بما على شيخه الكناني كتابي ابن الأبار "درر السمط" في التاسع من شهر محرم وفي 29 من شهر ربيع الثاني كما أعاد عليه قراءة كتاب "الأربعين حديثا". على أنه في هذه السنة أي 695 هـ / 1295 م، غادر بجاية ليحط رحاله بمدينة تونس وبالضبط في شهر رجب، أين بُجده في حلقة الشيخ حرز الله بن أبي محمد محرز وقد درس عليه كتاب "أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لابن إسحاق". حول ذلك. ينظر: المصدر نفسه، ص 250.
- (42) لمعرفة عناوين المؤلفات التي درسها التجيبي ببجاية على شيخه المشدالي. ينظر: المصدر نفسه، ص 239، 267، 272، 274.

الكتاب المدروس	نوعه	انتماؤه	طريقة التحمل	الصفحة
شمائل النبي لأبي عيسى الترمذي	السيرة	مشرقي	قراءة	110
سيرة ابن إسحاق (ت 150 هـ / 767 م)	السيرة	مشرقي	إجازة ومناولة	129
الدّر في اختصار المغازي لابن عبد البرّ (ت 463 هـ / 1070 م)	السيرة	أندلسي	قراءة	134
الشفاء للقاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)	السيرة	مغربي	قراءة ومناولة	138
المقتضب من حلية الأولياء لأبي نعيم لابن قبيش أبو الحسين النفزي	التراجم	أندلسي	قراءة مناولة	258
الضعفاء والمتروكين للبخاري	تراجم	مشرقي	قراءة ومناولة	261-260
المؤتلف والمختلف لأبي محمد عبد الغني الأزدي (ت 409 هـ / 1018 م)	تراجم	مشرقي	قراءة ومناولة	264
طبقات لقرء لأبي عمرو اللاني (ت 444 هـ / 1052 م)	التراجم	أندلسي	إجازة ومناولة	44
أصلة لابن بشكوال القرطبي (ت 578 هـ / 1182 م)	التراجم	أندلسي	قراءة و مناولة	263-262
درر السمط لابن الأبار (ت 658 هـ / 1259 م)	المناقب	أندلسي	قراءة	259
القصص والأمم لابن عبد البرّ	الأنساب	أندلسي	قراءة ومحادثة	265
مشتهه النسبة في ضبط أسماء الرواة لأبي محمد عبد الغني الأزدي	التراجم	مشرقي	قراءة ومناولة	265

من خلال الجدول أعلاه يمكن تسجيل عدة ملاحظات نجملها فيما يلي:

- نقرر بداية أن مجموع المؤلفات التي درسها التجيبي في برنامجه بلغت نحو 340 كتاباً⁽⁴³⁾، درس منها حوالي 48 كتاباً في حلقة شيوخه أبي عبد الله الكناني في فنون مختلفة⁽⁴⁴⁾. هذا وقد بلغ مجموع الكتب التاريخية التي درسها في برنامجه حوالي 28 كتاباً، منها 12 كتاباً تاريخياً درسه على شيوخه الكناني، وعناوينها مثبتة في

(43) أكدت الباحثة A. Ramos في مقالها حول برنامج التجيبي، أن عدد الكتب المثبتة فيه بلغت 340 كتاباً منها 70 كتاباً أندلسياً ما يمثل نسبة 20.5% من مجموع الكتب، ويشكل المؤلفين المشاركة 60%. أما مؤلفات الغرب الإسلامي فشكّلت ما نسبته 40% من هذه الأخيرة 16% مغربية و24% أندلسية. ينظر: A. Ramos Calvo, *op. cit.*, p. 298.

(44) لمعرفة عناوين هذه المؤلفات. ينظر: ص 35، 36، 39، 43، 44، 45، 50، 57، 67، 76، 90، 141، 142، 150، 161، 173، 235، 237، 245، 246، 248، 249، 252، 253، 254، 255، 286.

الجدول أعلاه. وهي بذلك تمثل ما يقرب $\frac{1}{2}$ مجموع المؤلفات التاريخية المدروسة في البرنامج⁽⁴⁵⁾، كما تمثل $\frac{1}{4}$ مجموع المؤلفات التي درسها على شيخه.

- نلفت الانتباه أيضا، أنه من أصل 12 كتابا تاريخيا التي درسها التجيبي في بجاية، توجد منها 6 مؤلفات درسها في بجاية⁽⁴⁶⁾ فقط دون غيرها من الحواضر الأخرى، التي توزعت حصصها التدريسية لتلك المؤلفات، كما في هذا الجدول التوضيحي:

الحاضرة	عدد المؤلفات التاريخية المدروسة بها	الصفحة من البرنامج
مالقة	3	266، 263، 244
سبتة	10	263، 135، 262، 137، 128، 111
تونس	2	250، 135
حواضر مصر ⁽⁴⁷⁾	10	265، 264، 251، 135، 131، 130، 111
دمشق	2	261، 260
مكة المكرمة	2	136، 111

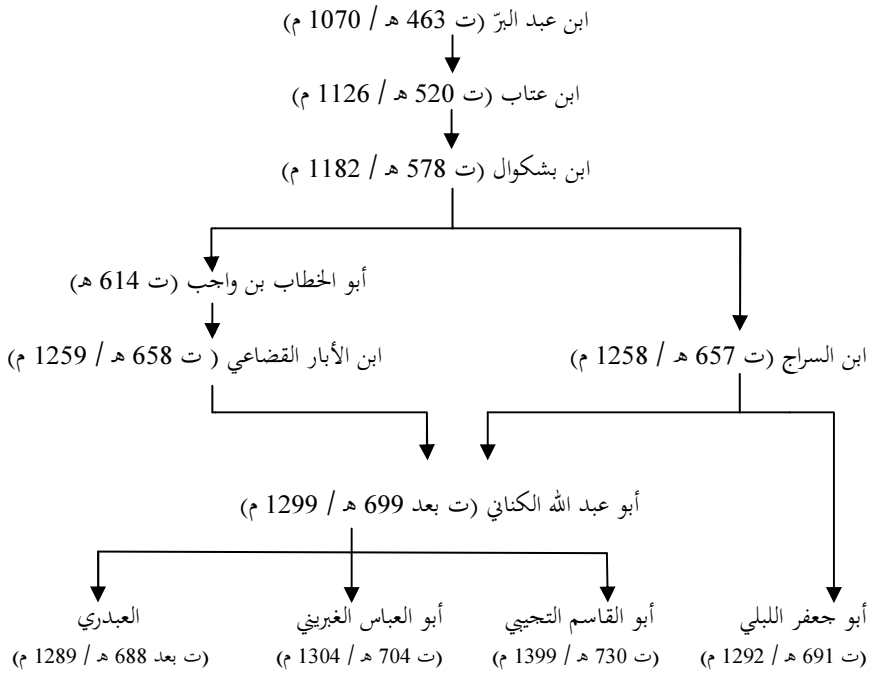
ما نزيد التأكيد عليه من خلال هذه الإحصائية، هو توضيح أهمية مدينة بجاية، كحاضرة علمية كانت من أبرز النقاط التي ساهمت في التكوين التاريخي للتجيبي في رحلته العلمية⁽⁴⁸⁾، التي قام بها مع نهاية القرن السابع هجري وقد مثل شيخه أبي عبد الله الكناي نقطة الارتكاز الأساسية بها. ومن أجل إعطاء صورة أوضح عن أهمية الشيخ أبي عبد الله الكناي واعتباره حلقة وصل بين العدوتين الأندلسية ممثلة في الرواية المؤرخ ابن عبد البر النمري وتلامذته من بعده، والمغربية ممثلة في طلبة الحلقة في بجاية. والكشف عن أبرز أسماء الشيوخ المؤرخين الأندلسيين الذين شكلوا حلقة وصل في سلسلة أسانيد الرواية التاريخية، موضحة في هذه السلسلة:

(45) معرفة مكانة الدراسات التاريخية في هذا البرنامج. ينظر: Allaoua Amara. « La transmission du savoir historique », *op. cit.*, pp. 219-225.

(46) المؤلفات التاريخية التي درسها التجيبي في بجاية فقط دون غيرها هي: كتاب "المقتضب من حلية الأولياء"، كتاب "الضعفاء والمتروكين"، كتاب "طبقات القراء"، كتاب "درر السمط"، كتاب "القصد والأمم"، كتاب "مشبته النسبة".

(47) التحق التجيبي بحلقات الشيوخ التي كانت تعقد في مختلف حواضر مصر، ودرس بها مجموعة معتبرة من المؤلفات التاريخية حيث كان نصيب الإسكندرية الأعلى بمجموع 4 مؤلفات تاريخية تليها القاهرة بمجموع 3 مؤلفات أما مدينة قوص، الفسطاط والقرافة، فنصيب كل واحدة منها مؤلف واحد.

(48) من مؤلفات التجيبي رحلته العلمية الموسومة بمستفاد الرحلة والاعتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1975. لكن ضياع قسم كبير منها خصوصا الجزء المتعلق ببلاد المغرب، فوت علينا فرصة الاستفادة منها.



رواج مؤلفات السيرة النبوية وكتب التراجم والطبقات المشرقية والأندلسية في الحلقة

إن قراءة فاحصة لنوعية المؤلفات التاريخية التي كانت مدار التلقين في بداية القرن السابع هجري، تؤكد على الانتشار الواسع لكتب السيرة النبوية، في مقدمتها: اثنان مشرقيان هما "سيرة ابن إسحاق" و"شمال" الترمذي واثنان أندلسيان ونعني بهما "الدّرّ في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البرّ النمري وكتاب "الروض الأنف" لأبي القاسم السهيلي، أما الكتاب المغربي الوحيد فهو كتاب "الشفاء" للقاضي عياض، هذه الخمسة عناوين تعكس انفتاح الوسط العلمي البجائي على مختلف التيارات الإخبارية، مع تركيز اهتمامها على كتب السيرة النبوية، باعتبارها تتمحور حول شخصية الرسول ﷺ.

أما كتب التراجم والطبقات التي تم تداولها في هذه المرحلة على الأقل، تشترك كلها في العناية بتراجم رواة الحديث، الذي له علاقة مباشرة بعلم "الجرح والتعديل" أو ما يعرف بـ "علم الرجال"، ومنه كانت الحاجة ماسة إلى معرفة سلسلة رجال الحديث، أنسابهم، قبائلهم وتراجم أهل العلم المعتمد عليهم. وعليه يمكن التأكيد على أن الاهتمام بالأثر النبوي، أقوال، وأفعال ومغازي الرسول... الخ، قد وُلد ذلك الاهتمام بسيرته ورواة أحاديثه ومن ثمة نشطت حركة التدوين في موضوع السيرة ومغازي الرسول، بالطبع كان ذلك حافزا كافيا لتداول هذه المؤلفات في حلقة الشيوخ، وانتشارها دون غيرها من المؤلفات التاريخية الأخرى، فقد استمدت أهميتها من أهمية الموضوع الذي تدور حوله.

تنامي الوعي التاريخي في بجاية القرن السابع هجري

من دون أي تردد، يمكننا الجزم بالدور البارز الذي لعبته المشيخة الأندلسية من طبقة المؤرخين، في تنشيط الوعي التاريخي ببجاية على وجه الخصوص خلال القرن 7 هـ / 13 م، إذ مثلت نقطة استقطاب واسعة لهذه العناصر النشطة. وبالرجوع إلى الوراء وبالتحديد إلى بجاية الحمادية، تتكشف لنا الصورة الباهتة التي صبغت الوعي التاريخي بالمنطقة، إذ لم تعرف تقاليد تاريخية واضحة بأسس وقواعد صلبة⁽⁴⁹⁾، وهو ما يفسر لنا إلى حد كبير قلة المهتمين بالدراسات التاريخية في المنطقة، يوازيه ذلك ندرة المؤلفات وإن وجدت فهي ضائعة⁽⁵⁰⁾، على غرار الكتاب التاريخي الذي ألفه حماد بن إبراهيم بن أبي يوسف المخزومي، لصالح الأمير الحمادي العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس (498-515 هـ / 1104-1121 م)، اطلع عليه ابن الأثير ونقل عنه في كتابه التكملة⁽⁵¹⁾، ومن المحتمل أن يكون قد عثر عليه ابن الأبار في المدة التي أقامها في بجاية، ومن ثمة استعان به في الترجمة للمؤرخ أحمد بن أبي العرب بن تميم القيرواني.

(49) من الدراسات التي سلطت الضوء على المسار العام للكتابة التاريخية المغربية المحلية خلال القرون الهجرية الأولى سلسلة المحاضرات التي ألقاها محمود إسماعيل على طلبة الدراسات العليا بمكناس، ونشرت تحت عنوان "الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي"، منشورات الزمن، الرباط، 2001. إضافة إلى سلسلة المقالات التي أنجزها علاوة عمارة باللغتين العربية والفرنسية، وقد تمت الإشارة إلى مقالين منها في وقت سابق. إضافة إلى مقال آخر تحت عنوان "ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، عدد 21، (2002)، ص ص 67-95. وأتبعه بدراسة ثانية حول شخصية الرقيق القيرواني مع التركيز على دوره في بلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب وجاء تحت عنوان "الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب"، مجلة التاريخ العربي، عدد 25، (2003)، ص ص 111-144.

(50) لمعرفة مزيدا من التفصيل. ينظر:

- علاوة عمارة، الكتابة التاريخية، ص ص 343-348.

- آسيا ساحلي، إنتاج وانتقال المعرفة التاريخية بالمغرب الأوسط في الفترة الوسيطة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، إشراف علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2007-2008، ص ص 32-83.

(51) تحقيق عبد السلام الهراس، دط، دار الفكر، بيروت، 1995، 1/111.

لكن خلال القرن السابع هجري، بدأت اهتمامات بعض النخب العلمية المحلية تتوجه إلى الاهتمام أكثر بالكتابات التاريخية، وأكب ذلك ظهور مجموعة معتبرة من المؤلفات التاريخية المحلية، التي ركزت اهتمامها على تاريخ المنطقة. وعليه سوف نسلط الضوء على اثنين ممن نعرف مؤلفاتهم التاريخية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصنهاجي (ت 628 هـ / 1230 م)⁽⁵²⁾، ينحدر من سوق حمزة (البويرة حاليا)، له "تلخيص" على تاريخ الطبري، كما ألف كتاب "النبد المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية"⁽⁵³⁾، وهو يمثل العودة إلى تمجيد ماضي السلالة الصنهاجية التي ينتمي إليها، والكتابات المذكوران معدودان ضمن الكتب الضائعة، إضافة إلى برنامج شيوخه الضائع أيضا، اطلع عليه الغبريني وأشاد بمضمونه⁽⁵⁴⁾. وقد وصلنا من مؤلفاته تلك كتابه "أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم"⁽⁵⁵⁾، الذي حاول فيه تدوين أخبار الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، في محاولة منه إضفاء صبغة الشرعية على الخلافة الفاطمية التي سلمت زمام الحكم للسلالة الصنهاجية التي ينحدر منها.

ومع نهاية القرن السابع هجري تطل علينا الشخصية الثانية، التي تعتبر من أبرز الشخصيات المحلية القريبة من دواليب السلطة، نعي به "كبير بجاية وصاحب شوارها" أبا العباس الغبريني الذي ذهب ضحية بطانة السلطان⁽⁵⁶⁾. يمثل كتابه "عنوان الدراية" اتجاهها تاريخيا مألوفًا في الغرب الإسلامي الوسيط، يمكن نعتة بكتابة تاريخية محلية بيوغرافية بامتياز، تركزت على تراجم الشخصيات الجائية المحلية والواردة إليها خلال القرن 7 هـ / 13 م، وتكمن أهمية كتابه هذا في اعتماده على الأحكام والتسجيلات القضائية التي كانت مجوزته باعتباره قاضي المدينة⁽⁵⁷⁾.

على أن الوسط العلمي البجائي خلال القرن 7 هـ / 13 م، لم يقتصر فقط على احتضانه لشخصيتي ابن حماد والغبريني، بل عرف أيضا شخصيات محلية أخرى محسوبة على فئة المهتمين بالأخبار، وهو الأمر الذي تكشفه لنا مطالعة تراجم الغبريني في "عنوان الدراية" أين زدنا بثلاث شخصيات محلية نعتها بـ "التاريخي". والجدول التالي يوضح ذلك:

- (52) ينظر ترجمته: الغبريني، مصدر سابق، ص ص 192-194. ابن عبد الملك المراكشي، مصدر سابق، 8/ 225-323.
- (53) ينسب صاحب الذيل والتكملة، 324/8. عنوانا آخرًا لابن حماد "الديباجة في أخبار صنهاجة"، يؤكد على أنه غير كتاب "النبد المحتاجة في أخبار صنهاجة". هذا العنوان الأخير نسه إليه الغبريني، مصدر سابق، ص 194.
- (54) المصدر نفسه، 193.
- (55) تحقيق جلول أحمد البدوي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- (56) يعتبر ابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين قدموا معلومات دقيقة حول نكبة الغبريني، وأسباب مقتله في محسه بأمر من صاحب البلاط البجائي أبي البقاء خالد (699-709 هـ / 1299-1309 م)، وخصص لذلك عنوانا مستقلا "الخير عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله"، حول ذلك ينظر: ابن خلدون، مصدر سابق، 6/ 264.
- (57) استعان الغبريني بالسجلات القضائية التي استطاع الوصول إليها في بجاية، في التثبت من تولى كل من الشيخ أبي محمد عبد الحق الأشبيلي (ت 582 هـ / 1186 م) والشيخ أبي تميم ميمون (ت 584 هـ / 1188 م) منصب قضاء بجاية مدة قليلة. حولها ينظر: الغبريني، مصدر سابق، ص 73، 183.

اسم الشخصية	الصفة العلمية	أصله	منصبه في بجاية	شيوخه في بجاية	الصفحة
أبو محمد عبد الله بن عبادة القلعي (ت 669 هـ / 1270 م)	التاريخي ... حافظا للتاريخ	قلعة بني حماد	- انتصب للتدريس	غير وارد	93
أبو عبد الله محمد بن ميمون القلعي (ت 673 هـ / 1274 م)	المحصل التاريخي	قلعة بني حماد	- انتصب للتدريس	- أبو المطرف بن عميرة - ابن محرز البلنسي	99-94
أبو عبد الله محمد بن يحيى الدلسي	له علم بالتاريخ	تدلس	- قاضي بعض كور بجاية - طبيا مزاولا ومعالجا	غير وارد	294

من الجدول يمكن قراءة نقطتين أساسيتين:

- على الرغم من تأكيد الغبريني على الصفات العلمية التي تمتعت بها الشخصيات المشار إليها، والتي تعكس في مجملها اهتماماتهم التاريخية، إلا أننا لا نعرف لهم كتابا في التاريخ، ما يزيد الأمر تعقيدا، أن مصدر الغبريني انفرد بالترجمة لهذه الشخصيات على الأقل بالنسبة للمصادر التي بين أيدينا.
- أن الشخصيات الثلاث لا تنتمي إلى بجاية المدينة، بل اثنان منها ينحدران من القلعة العاصمة الأولى للحماديين، يضاف إليهما ابن حماد الصنهاجي القلعي، وهو ما يشير إلى استمرارية القلعة وأحوازها في تقديم نماذج بارزة، لشخصيات محلية فاعلة في الوسط العلمي البجائي، وإثبات مقدرتها على تولي مناصب مهمة. لكن رغم أهمية هذه التراجم التي عرضها علينا الغبريني، إلا أننا لا تشكل لنا في عمومها مادة خبرية كافية، يمكن التعويل عليها في الوصول إلى حقيقة النشاط التاريخي لهذه الأخيرة، فمثلا شخصية ابن ميمون القلعي وإن علمنا بجلوسه حلقة شيخين من كبار الشيوخ الأندلسيين من ذوي الاهتمامات التاريخية، إلا أن الغبريني لا يكشف لنا عن طبيعة المواد التي درسها عليهما. وعليه فإننا أمام هذا الشح في المعلومات، نجد أنفسنا مكتفين فقط بالتأكيد على تحلي هذه الشخصيات المحلية بالصفة العلمية الصريحة التي ثبتها الغبريني بالقول " لتاريخي"، "له علم بالتاريخ".

الختامة:

لا يسعنا القول في ختام هذه الورقة، إلا التأكيد على الدور البارز الذي لعبته المدرسة التاريخية الأندلسية، ممثلة في أساتذتها الواردين على بجاية، في مقدمتهم الشيخ أبو عبد الله الكناي ودوره في تفعيل النشاط التاريخي بالمنطقة، وذلك بتدريسه على طلبة حلقتة مجموعة معتبرة من المؤلفات التاريخية، على الخصوص كتب السيرة النبوية وتراجم رجال الحديث، تماشيا مع روح ذلك العصر، أين سيطرت فيه العلوم الشرعية، توازي مع ذلك الانتشار الواسع لمؤلفات علوم القرآن، والفقه وأصوله، وعلوم الحديث، واللغة العربية.

من جهة أخرى، لفت الانتباه إلى أهمية كتب البرامج وفهارس الشيوخ، في تسليط الضوء على طبيعة المواد المدرسة داخل الحلقة، ما يتيح للباحثين معرفة الخلفية الفكرية التي تستند عليها الأوساط العلمية في بجاية، والمتمثلة أساسا في الاعتماد على الإنتاج الفكري الأندلسي والمشرقي، في مقابل ذلك غياب شبه كلي للإنتاج المحلي المغربي. وهو ما يؤكد لنا طبعاً أسبقية المدرسة التاريخية المشرقية وبلوغها مرحلة النضج، كما لم تكن المدرسة التاريخية الأندلسية بأقل من نظيرتها المشرقية، وبذلك حققت مراحل متقدمة عن شقيقتها المدرسة التاريخية المغربية، التي سوف تعرف تطورا ملحوظا على كافة المستويات مع بدايات القرن 8 هـ / 14 م، وتدشين حضورها بظهور مؤلفات ابن عذاري (ت بعد 712 هـ / 1312 م) ، وابن مرزوق (ت 781 هـ / 1379 م)، وابن خلدون (ت 808 هـ / 1405 م).